سورة الواقعة
إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا
ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ
أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ
إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ
إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ
﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ
﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ
ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ
﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾
سورة الحديد
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾
هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾
٥٣٧

معانى الكلمات :

مدهنون : مكذبون .

مدينين : محاسبين .

روح : قلة استراحة أو رحمة .

وريحان : ورزق حسن .

فنزل : فله قرى وضيافة .

تصلية جحيم : مقاساة لحر النار أو إدخال فيها .

سبح لله : نزه الله ومجده ودل عليه .

العزيز : القادر الغالب على كل شىء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مشهد الموت ساعة خروج الروح من الجسد .

٢ ـ أن تعرف على مصير السابقين إلى الخيرات وأصحاب اليمين ، وعقاب الذين كذبوا وضلوا .

٣ ـ أن نعلم تسبيح الكون كله لله ، وأنه خاضع له ومطيع .

المحتوى التربوى :

يعلن السياق أن هذا الكتاب قرآن كريم ، وليس كما تدعون قول كاهن ، ولا قول مجنون ، ولا مفترى على الله من أساطير الأولين ، ولا تنزلت به الشياطين . إلى آخر هذه الأقاويل ، إنما هو قرآن كريم ، كريم بمصدره ، وكريم بذاته ، وكريم باتجاهاته ، وهو فى كتاب مصون ، وقد زعم المشركون أن الشياطين تنزلت به فهذا نفى لهذا الزعم ، فالشيطان لا يمس هذا الكتاب المكنون فى علم الله وحفظه إنما تنزلت به الملائكة المطهرون ، وهو تنزيل من رب العالمين لا تنزيل من الشياطين .

ثم يأتى الختام بلحظة الموت ، اللمسة التى ترجف لها الأوصال ، واللحظة التى تنهى كل جدال ، واللحظة التى يقف فيها الحى بين نهاية طريق وبداية طريق ، حيث لا يملك الرجوع ولا يملك النكوص ، ولا يكون هناك إلا قول الحقيقة : أفأنتم شاكون فى هذا الحديث الذى يقال لكم عن النشأة الآخرة ، مكذبون بالقرآن وما يقصه عليكم من شأن الآخرة ، وما يقرره لكم من أمور العقيدة ؟ وإذا التكذيب هو رزقكم الذى تحصلون عليه فى حياتكم وتدخرونه لآخرتكم ؟ وما أسوأه من رزق ! فماذا أنتم فاعلون إذ تبلغ الحلقوم وتقفون فى مفرق الطريق المجهول ؟

وهنا فى هذه اللحظة وقد فرغت الروح من أمر الدنيا ، وخلفت وراءها الأرض وما فيها ، وهى تستقبل عالما لا عهد لهابه ، ولا تملك من أمره شيئا إلا ما ادخرت من عمل ، وما كسبت من خير أو شر ، هنا تقف قدرة البشر ، ويقف علم البشر ، وينتهى مجال البشر ، وتنفرد القدرة الألهية ن والعلم الإلهى ويخلص الأمر كله لله بلا شائبة ولا شبهة ولا جدال ولا محال ، ويجلل الموقف جلال الله ، ورهبة حضوره سبحانه وتعالى وهو حاضر فى كل وقت .

ويجىء التحدى الذى يقطع كل قول وينهى كل جدال ؛ فلو كان الأمر كما يقولون : إنه لا حساب ولا جزاء ، فأنتم إذن طلقاء غير مدينين ولا محاسبين ، قدوتكم إذن فلترجعوها ـ وقد بلغت الحلقوم ـ لتردوها عما هى ذاهبة إليه من حساب وجزاء وأنتم حولها تنظرون ، وهى ماضية إلى الدينونة الكبرى وأنتم ساكنون عاجزون ، وهنا تنقطع كل حجة وينتهى كل جدال .

ثم يمضى السياق فى بيان مصير هذه الروح وهى تستدبر الحياة الفانية،وتستقبل الحياة الباقية، فأما إن كان المحتضر من المقربين وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات فلهم راحة وريحان ورزق تبشرهم الملائكة بذلك عند الموت وأما إن كان من أصحاب اليمين فيلتفت بالخطاب إليه يبلغه سلام إخوانه من أصحاب اليمين وما أندى السلام عندئذ وما أحبه حين يتلقاه وقد بلغت الحلقوم ، فيطمئن باله ويشعر بالأنس فى الصحبة مع أصحاب اليمين ، وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق ، الضالين عن الهدى فضيافته من ماء مذاب يصهر به ما فى بطونهم والجلود، وما أسوأه من نزل، ومثوى، ذلك الحميم الساخن ، وما أشده عذابا ذلك الحميم ، يتراءى له ويعلم أنه ملاقيه عن يقين ، وهو لا مرية فيه ولا محيد لأحد عنه ، وهذا اليقين الثابت الجازم من اتجاه إلى الله بالتسبيح والتعظيم .

سورة الحديد

يقول صاحب الظلال : « هذه السورة بجملتها دعوة للجماعة الإسلامية كى تحقق فى ذاتها حقيقة إيمانها ، هذه الحقيقة التى تخلص بها النفوص لدعوة الله ، فلا تضن عليها بشىء ، ولا تحتجز دونها شيئا ، لا الأرواح ولا الأموال ولا خلجات القلوب ، ولا ذرات الصدور ، وهى الحقيقة التى تستحيل بها النفوس ربانية بينما تعيش على الأرض موازينها هى موازين الله والقيم

التى تعتز بها وتسابق إليها هى القيم التى تثقل فى هذه الموازين كما أنها هى الحقيقة التى تشعر القلوب بحقيقة الله فتخشع لذكره ، وترجف وتفر من كل عائق وكل جاذب يعوقها عن الفرار إليه » .

وينطلق النص القرآنى الكريم فى مفتتح السورة ، فتتجاوب أرجاء الوجود كله بالتسبيح لله ، فيسمعه كل شىء فى السموات والأرض ، فيسمعه كل قلب مفتوح غير محجوب بأحجبة الفناء ولا حاجة لتأويل النص عن ظاهر مدلوله ، ولنا أن نأخذ من هذا أن كل ما فى السموات والأرض له روح ، بها إلى خالقه بالتسبيح وإن هذا لهو أقرب تصوير يصدقه ما وردت به الآثار الصحيحة ، كما تصدقه تجارب بعض القلوب فى لحظات صفائها وإشراقها ، واتصالها بالحقيقة الكامنة فى الأشياء وراء أشكالها ومظاهرها،وتسبيح ما فى الموات والأرض له فرع عن العزة الغالبة والحكمة البالغة فهو المهيمن على كل شىء بقوته وهو جاعل كل شىء وفق حكمته، وهو المالك المتصرف فى خلقه فيحيى ويميت ن ويعطى من يشاء ، ولا يكون إلا قدره الذى قضاه ، والمشيئة المطلقة تمضى بغير حد ولا قيد ، وتتعلق بما تشاء أن تتعلق به كما تشاء ، وتمثل للقلب البشرى من خلال هذه الآية سلطان الله المطلق فى ملكه الذى لا شريك له فيه والذى يتوجه إليه سبحانه بالتسبيح وحق له أن يتوجه ، وحق عليه أن يسبح .

وما يكاد يفيق من تصور هذه الحقيقة حتى تطالعه حقيقة أخرى ؛ حقيقة ألا كينونة لشىء فى هذا الوجود على الحقيقة ، فالكينونة الواحدة الحقيقية هى لله وحده سبحانه ، ومن ثم فهى محيطة بكل شئ عليمة بكل شىء ، فهو الأول فليس قبله شىء ، والآخر فليس بعده شىء ، والظاهر فليس فوقه شىء ، والباطن فليس دونه شىء الأول والآخر مستغرقًا كل حقيقته الزمان والظاهر والباطن مستغرقًا كل حقيقة المكان ، وهما مطلقتان ، ويتلفت القلب البشرى فلا يجد كينونة لشىء إلا لله والله له علم الحقيقة الكاملة بكل شىء ، هذا العلم الذى لا يشاركه أحد فى نوعه وصفته وطريقته مهما علم المخلوقون عن ظواهر الأشياء ، وإذا استقرت هذه الحقيقة الكبرى فى قلب ، فما احتفاله بشىء فى هذا الكون غير الله سبحانه ؟ وحق لكل مخلوق أن يتوجه إليه .

ماترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ القرآن الكريم ليس بقول كاهن ولا شاعر وإنما هو من عند الله لنتخذه نهجا متكاملا فى حياتنا .

٢ ـ فى لحظة الاحتضار يرى الإنسان مقعده من الجنة أو النار .

٣ ـ الكون كله بما فيه ومن فيه يسبح لله رب العالمين فأين أنت أيها الإنسان من هذا التسبيح؟!

الجزء السابع والعشرون — سورة الحديد

هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى
على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من
السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون
بصير (٤) له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور
(٥) يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وهو عليم بذات
الصدور (٦) ءامنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم
مستخلفين فيه فالذين ءامنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير (٧)
وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد
أخذ ميثقكم إن كنتم مؤمنين (٨) هو الذى ينزل على عبده
ءايت بينت ليخرجكم من الظلمت إلى النور وإن الله بكم
لرءوف رحيم (٩) وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميرث
السموات والأرض لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح
وقتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقتلوا
وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير (١٠) من ذا
الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضعفه له وله أجر كريم (١١)

٥٣٨

معانى الكلمات :

يلج : يدخل .

يعرج : يصعد .

أنفقوا : تصدقوا .

ميثاقكم : العهد المؤكد .

يستوى : يتساوى .

الفتح : فتح مكة .

يقرض: ينفق ماله فى سبيل الله طلبا لثوابه .

قرضا حسنا : محتسبا به ، طيبة به نفسه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن كل أمر فى هذا الكون مرده إلى الله تعالى .

٢ ـ أن نعلم أن الإيمان عقيدة فى القلوب وترجمة فى السلوك .

٣ ـ أن نعلم أن الفضل للسابق ، وللناس منازلهم .

المحتوى التربوى :

بعد إطلاق تلك الحقيقة الكبرى ، حقيقة ألا كينونة لشىء فى هذا الوجود على الحقيقة ، فالكينونة الواحدة الحقيقية هى لله وحده ـ سبحانه ـ جعل يذكر كيف انبثقت منها حقائق الوجود الأخرى ؛ حقيقة خلق السموات والأرض ، وحقيقة الاستواء على العرش والهيمنة على الخلق ، وحقيقة العلم بأشياء بعينها من هذا الخلق ، وحقيقة الوجود مع كل أحد أينما وجد ، وحقيقة رجعة الأمور إليه وحده ، وحقيقة تصرفه اللطيف فى كيان الوجود ، وعلمه الخفى بذات الصدور .

والسموات والأرض تروعه بضخامتها وجلالها كما تواجهه وتروعه بدقة نظامها وانضباط حركاتها ، ثم إنها خلائق من خلق الله كالقلب البشرى ، وهى تقول له : إن الذى خلقها هو الذى خلقه ، وهى تسبح لخالقها فليسبح لخالقه، كما تقول له : إنها تستمد حقيقة وجودها من

وجود خالقها وأنه هو كذلك ، فليس هنالك إذن إلا هذه الحقيقة تستحق الاحتفال بها ، والأيام الستة لا يعلم حقيقتها إلا الله فأيامنا هذه ناشئة عن حركة الأرض حول نفسها أمام الشمس وجدت بعد خلق الأرض والشمس ، فليست هى الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض وكذلك العرش ، فنحن نؤمن به كما ذكره ولا نعلم حقيقته فقد أنشأ السموات السبع والأرض فدبرهن وما فيهن ثم استوى على عرشه استواءً منزها عن الكيفية جلّ ربى وتقدس .

وفى كل لحظة يلج فى الأرض ما لا عداد له ، ولا حصر من شتى أنواع الأحياء والأشياء ، ويخرج منها ما لا عداد ولا حصر من خلائق لا يعلمها إلا الله ، وفى كل لحظة ينزل من السماء من الأمطار والأشعة والنيازك والشهب ، والملائكة والأقدار والأسرار ، ويعرج فيها كذلك من المنظور والمستور ما لا يحصيه إلا الله ، وبينما القلب فى تلفته ذاك فى الأرض ، إذا القرآن يرده إلى ذاته ، ويلمسه فى صميمه ، وإذا هو يجد الله معه ، ناظراً إليه ، مطلعا عليه ، بصيراً بعمله ، قريبا جد قريب ؛ فالله سبحانه مع كل أحد ومع كل شىء ، فى كل وقت وفى كل مكان ، مطلع على ما يعمل بصير بالعباد .

ومرة أخرى يعود إلى ملكية السموات والأرض فى مجال آخر غير الذى وردت فيه أول مرة ، ففى المرة الأولى جاء ذكرها فى معرض الإحياء والإماتة والقدرة المطلقة ، وهنا يجىء ذكرها فى معرض رجعة الأمور كلها إلى الله ، وهى متصلة بملكية الله للسموات والأرض ومكملة لحقيقتها ، والشعور بهذه الحقيقة يحرس القلب من كل لفتة لغير الله فى أى أمر ، فى أول الأمر وفى آخره ، ويحميه من التطلع لغير الله فى أى طلب ، ومراقبة غير الله فى أى عمل ، ويقيمه على الطريق إلى الله فى سره وعلنه ، وحركته وسكونه ، وخوالجه ونجواه ، وهو يعلم أن لا مهرب من الله إلا إليه ، ولا ملجأ منه إلا إلى حماه .

ودخول الليل فى النهار ، ودخول النهار فى الليل ، حركة دائبة ، وهى فى الوقت ذاته حركة لطيفة سواء كان المعنى طول الليل وأخذه من النهار ، وطول النهار وأخذه من الليل ، أو كان المعنى مجرد تداخل الليل فى النهار عند الغروب ، وتداخل النهار فى الليل عند الشروق ، ومثل هذه الحركة فى خفائها ولطفها ، حركة العلم بذات الصدور وذات الصدور هى الأسرار المصاحبة لها التى لا تفارقها ولا تبرحها .

ويجىء الهتاف للقلوب بالإيمان والبذل وقد تفتحت مداخلها وتوفرت مشاعرها، واستعدت للاستماع ، يجىء هذا الهتاف ومعه مؤثراته وإيقاعاته ولمساته ، فالله سبحانه يخاطب القلوب التى خلقها ، فهو يعلم أحوالها ويعرف مداخلها ، ويطلع على خوافيها ، وهو يعلم أن نقاء العقيدة وخلوص القلب ، واستقرار حقيقة الإيمان استقراراً تنبثق منه آثاره ونتائجه فى واقع الحياة من بذل وتضحية وتقدمة خالصة لله ، إن هذا أمر يكلف الطاقة البشرية كثيراً، ويحتاج منها إلى جهد ومجاهدة طويلة .

والمخاطبون هنا هم مسلمون،ولكنهم يدعون إلى الإيمان بالله ورسوله، فهى إذن حقيقة الإيمان يدعون لتحقيقها فى قلوبهم بمعناها ، وهى لفتة دقيقة وهم يدعون إلى الإنفاق ، ومع

الدعوة لمسة موحية فهم لا ينفقون من عند أنفسهم،إنما ينفقون مما استخلفهم الله فيه من ملكه، وهو مالك السموات والأرض فهو الذى استخلف بنى آدم جملة فى شىء من ملكه ، وهو الذى يحيى ويميت فهو الذى استخلف جيلا منهم بعد جيل،ويخاطبهم بمؤثر جديد يخجلهم من كرم الله ويطمعهم فى فضله ، فكيف يتخلف عن الإيمان والبذل فى مواجهة هذا الكرم والفضل ؟

ويلح على قلوبهم بموحيات الإيمان وموجباته من واقع حياتهم وملابساتها ، فما الذى يعوقهم عن الإيمان ـ حق الإيمان ـ وفيهم الرسول يدعوهم إلى الإيمان ، وقد بايعوه عليه وأعطوه ميثاقهم ؟ وما الذى يعوقهم عن الإيمان بالله وهو ينزل على عبده آيات بينات تخرجهم من ظلمات الضلال والشك والحيرة إلى نور الهدى واليقين والطمأنينة ؟ وفى هذا وذاك من دلائل الرأفة والرحمة بهم ما فيه .

ثم ينتقل بهم من موحيات الإيمان وموجباته إلى موحيات الإنفاق وموجباته فى توكيد وتكرير ، وفى هذه الإشارة عودة إلى حقيقة أن الله له ميراث السموات والأرض وملكه راجع إليه، وما استخلفوا فيه إذن سيؤول إليه فى الميراث ، فما لهم لا ينفقون فى سبيله حين يدعوهم إلى الإنفاق وهو استخلفهم فيه كما قال لهم هناك ، وكله عائد إليه كما يقول لهم هنا ؟ وما الذى يبقى من دواعى الشح وهواتف البخل أمام هذه الحقائق فى هذا الخطاب ؟

ولقد بذلت الحفنة المصطفاة من المهاجرين والأنصار ما وسعها من النفس والمال فى ساعة العسرة والشدة والذى ينفق ويقاتل والعقيدة مطاردة ، غير الذى ينفق ويقاتل والعقيدة آمنة .

قال القاسمى: « قال السيوطى فى الإكليل : فى الآية دليل على أن للصحابة مراتب ، وأن الفضل للسابق ، وعلى تنزيل الناس منازلهم وعلى أن أفضلية العمل على قدر رجوع منفعته إلى الإسلام والمسلمين ؛ لأن الأجر على قدر النصب » .

ويقرر السياق أن للجميع الحسنى ، فقد أحسنوا جميعا على تفاوت ما بينهم فى الدرجات والله بأعمالهم عليم ، وخبير بحقيقة ما يعملون ، وندب الله إلى الإنفاق فى سبيله فمن ذا الذى ينفق ماله فى سبيله تعالى رجاء أن يعوضه فإنه كمن يقرضه ، والله يعطى الثواب أضعافا مضاعفة وللمنفق جزاء شريف جميل .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الله سبحانه مطلع على ما يعمل كل إنسان وهو بصير بعباده ، وعلى المسلم أن يكون فى حذر وخشية دائمة مع الحياء والخجل من كل عمل قبيح وقول ردىء ، وفى نفس الوقت يكون فى أنس من الله ومن كان الله معه لا يحزن.

٢ ـ المسلمون مدعون إلى أن يفضلوا قيم الآخرة على قيم الدنيا ؛ لأن قيم الآخرة هى الباقية .

٣ ـ الإنفاق فى سبيل الله مطلوب من المسلمين وثمرة من ثمرات الإيمان والخشوع لله .

يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم
بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ
هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا
فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ
ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ
أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ
ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا
مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ
﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ
وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ
فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾
ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟
ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾
٥٣٩

معانى الكلمات :

انظرونا : انتظرونا .

نقتبس : نُصِبْ ونأخذ ونستضىء .

بسور : بحاجز بين الجنة والنار .

فتنتم أنفسكم : أهلكتموها بالنفاق .

تربصتم : انتظرتم نزول المصائب .

وغرتكم الأمانى : خدعتكم الأباطيل .

الغرور : الشيطان وكل خادع .

الأمد : الأجل أو الزمان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على أحوال المؤمنين يوم القيامة .

٢ ـ أن نعلم صفات المنافقين وسوء مصيرهم .

٣ ـ أن نعلم فوائد التذكير للمؤمنين والوعظ والإرشاد .

المحتوى التربوى :

يعرض السياق للمؤمنين صفحة وضيئة من الأجر الكريم فى مشهد من مشاهد اليوم الذى يكون فيه ذلك الأجر الكريم ؛ فهؤلاء هم المؤمنون والمؤمنات نراهم ، ولكننا نرى بين أيديهم وبأيمانهم إشعاعا لطيفا هادئا ، ذلك نورهم يشع منهم ويفيض بين أيديهم ، فهذه الشخوص الإنسانية قد أشرقت وأضاءت وأشعت نوراً يمتد منها فيرى أمامها ويرى عن يمينها ، إنه النور الذى أخرجها الله إليه وبه من الظلمات ، والذى أشرق فى أرواحها فغلب على طينتها .

ثم ها نحن أولاء نسمع ما يوجه إلى المؤمنين من تكريم وتبشير ، فالبشارة لهم يومها بجنات تجرى من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبداً وهو الفوز العظيم الذى ليس بعده فوز ، والمشهد لا

ينتهى فهناك المنافقون والمنافقات فى حيرة وضلال ، وفى مهانة وإهمال ، وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات ويقولون لهم : انتظرونا وهم يتبعونهم حتى يصيبوا من هذا النور ، ولكن أنى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور وقد عاشوا حياتهم كلها فى الظلام ؟ إن صوتا مجهلا يناديهم : ارجعوا وراءكم إلى الدنيا إلى ما كنتم تعملون ، ارجعوا فالنور يلتمس من هناك من العمل فى الدنيا ، ارجعوا فليس اليوم يلتمس النور .

وعلى الفور يفصل بين المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات ، فهذا يوم الفصل إن كانوا فى الدنيا مختلطين فى الجماعة يضرب بينهم بسور ، ويبدو أنه سور يمنع الرؤية ولكنه لا يمنع الصوت ، فها هم أولاء المنافقون ينادون المؤمنين : ألم نكن معكم ؟ فما بالنا نفترق عنكم؟ألم نكن معكم فى الدنيا نعيش فى صعيد واحد وقد بعثنا معكم هنا فى صعيد واحد ؟ ! والأمر كذلك ولكنكم صرفتكم أنفسكم عن الهدى وانتظرتم وأخرتم التوبة من وقت إلى وقت ولم تعزموا ولم تختاروا الخيرة الحاسمة ، ولم يكن لكم من اليقين ما تعزمون به العزمة الأخيرة ، وخدعتكم الأباطيل فى أن تنجوا وتربحوا بالذبذبة ، وإمساك العصا من طرفيها حتى جاء أمر الله وانتهى الأمر ، وقد خدعكم الشيطان الذى كان يطمعكم ويمنيكم ثم يستطرد المؤمنون فى التذكير والتقرير ، كأنهم هم أصحاب الموقف المحكمون فيه، فيوبخون هؤلاء المنافقين فيقولون لهم:لو جاء أحدكم بملء الأرض ذهبا ومثله معه ليفتدى به من عذاب الله ما قبل منه،ولعل هذه الكلمة كلمة الملأ الأعلى، أو نطق الله الكريم .

ثم يتوجه العتاب من الله سبحانه للمؤمنين ، الذين لم يصلوا إلى تلك المرتبة التى يريدها الله لهم ، وتلويح لهم بما كان من أهل الكتاب قبلهم من قسوة فى القلوب وفسق فى الأعمال ، وتحذير من هذا المآل الذى انتهى إليه أهل الكتاب بطول الأمد عليهم مع إطماعهم فى عون الله الذى يحيى القلوب كما يحيى الأرض بعد موتها ، وهو عتاب مؤثر من المولى الكريم الرحيم واستبطاء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التى أفاض عليها من فضله ، فبعث فيها الرسول يدعوها إلى الإيمان بربها ، ونزّل عليه الآيات البينات ليخرجها من الظلمات إلى النور ، وأراها من آياته فى الكون والخلق ما يبصّر ويحذّر .

عتَاب فيه الود ، وفيه الحض ، وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله والخشوع لذكره ، وتلقى ما نزل من الحق بما يليق بجلال الحق من الروعة والخشية والطاعة والاستسلام مع رائحة التنديد والاستبطاء فى السؤال ، وإلى جانب التحضيض والاستبطاء تحذير من عاقبة التباطؤ والتقاعس عن الاستجابة ، وبيان لما يغشى القلوب من الصدأ حين يمتد بها الزمن بدون جلاء ، وما تنتهى إليه القسوة بعد اللين حين تغفل عن ذكر الله ، وحين لا تخشع للحق ، ولابد من تذكير

هذا القلب حتى يذكر ويخشع ولا بد من الطرق عليه حتى يرق ويشف ولا بد من اليقظة الدائمة كى لا يصيبه التبلد والقساوة، وليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج.

والله يلين القلوب بعد قسوتها فلا بأس من قلب خمد وجمد، وقسا وتبلد، فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة وأن يشرق فيه النور وأن يخشع لذكر الله، فالله يحيى الأرض بعد موتها فتنبض بالحياة، وكذلك القلوب حين يشاء الله، وفى هذا القرآن ما يحيى القلوب كما تحيا الأرض وما يمدها بالغذاء والرى والدفء، ولعلكم تثوبون إلى عقولكم ومراشدكم.

ويتبع السياق هذه اللمسة المحيية، وذلك العتاب المخجل، وذاك التذكير والتحذير، بحافز جديد للبذل والفداء؛ فالمتصدقون والمتصدقات لا يتفضلون على آخذى الصدقات، ولا يتعاملون فى هذا مع الناس، إنما هم يقرضون الله ويتعاملون مباشرة معه، فأى حافز للصدقة أوقع وأعمق من شعور المعطى بأنه يقرض الغنى الحميد، وأنه يتعامل مع مالك الوجود؟ وأن ما ينفقه مخلف عليه مضاعفا، وأن له بعد ذلك كله أجراً كريما؟

وتكررت الدعوة إلى إقراض الله قرضا حسنا، مع بيان ما أعده الله لمن يقرضونه فى الدنيا من العوض المضاعف والأجر الكريم، وكان التكرار لأن هذا الأمر يكلف الطاقة البشرية كثيراً، ويحتاج منها إلى جهد ومجاهدة طويلة، ولقد ضربت الحفنة المصطفاة من السابقين المثل الرائع، وكأن البذل منهم كان خالصا لا تشوبه شائبة من طمع فى عوض من الأرض، ولا من رياء أمام كثرة غالبة من أهل الإسلام، كان بذلاً منبثقا عن خيرة اختاروها عند الله، وعن حمية لهذه العقيدة التى اعتنقوها وآثروها على كل شىء، وعلى أرواحهم وأموالهم جميعا.

وهذا التكرار والتأكيد على الإنفاق لكفيل بأن يطير به إلى البذل طيرانا، وإن الناس ليتسابقون عادة إلى إقراض الثرى الملىء منهم ـ وهم كلهم فقراء ـ لأن السداد مضمون، ولهم الاعتزاز بأن أقرضوا ذلك الثرى الملىء، فكيف إذا كانوا يقرضون الغنى الحميد؟!

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا:

١ ـ المال فى الحقيقة هو مال الله تعالى ـ ونحن مفوضون للتصرف فيه ومحاسبون عليه.

٢ ـ لا فرق فى الجزاء على الأعمال بين ذكر وأنثى؛ لأن الجميع من نفس واحدة.

٣ ـ المنافقون أشد خطراً على المسلمين من الكافرين؛ لأن عداوتهم غير ظاهرة وهم غير معروفين للمسلمين.

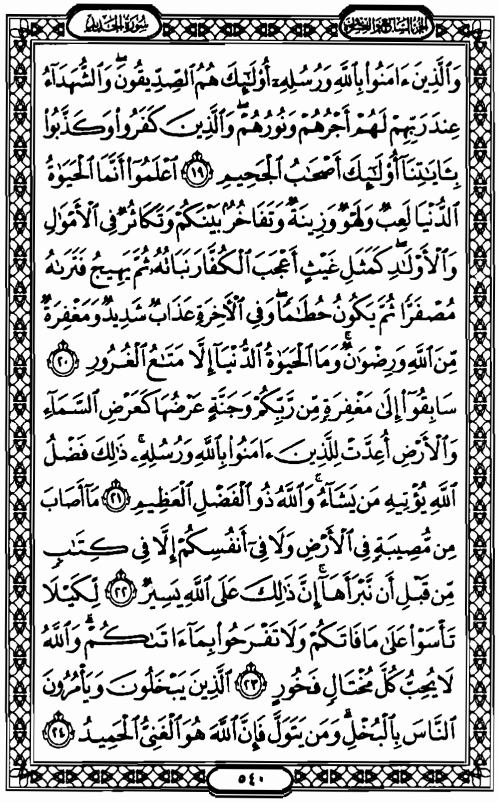
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ
عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِـَٔايَٰتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ
الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَٰلِ
وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ
مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ
مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾
سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ
اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ
مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ
مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا
تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَىٰكُمْ وَاللَّهُ
لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾
٥٤٠

معانى الكلمات :

تكاثر : مباهاة وتطاول بالعدد والعُدد .

الكفار : الزراع .

يهيج : ييبس فى أقصى غايته .

حطاما : فتاتا متكسراً بعد يبسه .

نبرأها : نخلق هذه الكائنات .

تأسوا : تحزنوا حزن قنوط .

تفرحوا : فرح بطر واختيال .

مختال : متكبر متطاول على الناس .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الإسلام لا مجال فيه للطبقات المحفوظة المقام .

٢ ـ أن نعلم أن متاع الدنيا يستمد قوامه من الغرور الخادع .

٣ ـ أن نستشعر الإيمان بقضاء الله وقدره .

المحتوى التربوى :

مقام الصديقين مقام رفيع كما تصوره الأحاديث النبوية الشريفة ، ومع علو هذا المقام فهو بفضل الله ميسور لمن أراده ، وليس وقفا على أفراد ولا على طائفة ، فكل من يحقق إيمانه بالله ورسله يطمع فى هذا المقام الرفيع ، ولا حجرعلى فضل الله ، وتلك خاصية هذا الدين وميزته ، إنه طريق مفتوح لجميع البشر ، وأفق يتطلع إليه الجميع ، ليس فيه احتكار للمقامات ، وليس فيه خصوصيات محجوزة لأناس بأعيانهم ، وليس إلا العمل يصعد بصاحبه إلى أرقى الدرجات ، إنه دين لا مجال فيه للطبقات المحفوظة المقام .

وهذه لمسة الإيمان ، فأما لمسة الفداء ، فالحديث عن مقام الشهداء ، فهذا الدين لا يقوم بغير حراسة ، ولا يتحقق فى الأرض بغير جهاد ، جهاد لتأمين العقيدة وتأمين الدعوة وحماية أهله من

الفتنة وشريعته من الفساد ، ومن ثم كان للشهداء فى سبيل الله مقامهم ، وكان لهم قربهم من ربهم، وإذا كان هذا حال السعداء من الصديقين والشهداء، فمن ذا الذى يترك الكرامة والنعيم ، ويختار أن يكون من أصحاب الجحيم ، إلا الكافرين المكذبين .

ويعقب السياق بتصوير الدنيا بصورة هزيلة زهيدة تهون من شأنها وترفع النفوس عنها ، وتعلقها بالآخرة وقيمها ، والحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هى وتوزن بموازينها تبدو فى العين وفى الحس أمراً عظيما هائلا ، ولكنها حين تقاس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئا زهيداً تافها ، وهى هنا فى هذا التصوير تبدو ولعبة أطفال بالقياس إلى ما فى الآخرة من جد تنتهى إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة ، لعب ولهو وزينة .وتفاخر . وتكاثر ، هذه هى الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من جد حافل واهتمام شاغل .

ثم يمضى السياق فيضرب لها مثلاً مصوراً ؛ تمثل الحياة الدنيا فى أنها زهرة فانية ونعمة زائلة كمثل المطر الذى يأتى بعد قنوط الناس ، فيعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذى ينبت بالغيث ، وكما يعجب الزراع ذلك ، كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار ، فإنهم أحرص شىء عليها وأميل الناس إليها ، وهذا الزرع يهيج فتراه مصفراً بعد ما كان خضراً نضراً ثم يكون بعد ذلك حطاما وهكذا الحياة الدنيا تكون أولا شابة ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزاً شوهاء ، والإنسان كذلك يكون فى أول عمره وعنفوان شبابه غضا طريا لين الأعطاف بهى المنظر ، ثم إنه يشرع فى الكهولة فتتغير طباعه ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخا كبيراً ، ضعيف القوى قليل الحركة ، يعجزه الشىء اليسير ، وهكذا ينتهى شريط الحياة بهذه الصورة المتحركة التى تنتهى بمشهد الحطام .

فأما الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن ، شأن يستحق أن يحسب حسابه ، وينظر إليه ويستعد له ، فهى لا تنتهى فى لمحة كما تنتهى الحياة الدنيا ، إنها حساب وجزاء ودوام .

يقول صاحب **الظلال** عن متاع الحياة : « فما لهذا المتاع حقيقة ذاتية ، إنما يستمد قوامه من الغرور الخادع ، كما أنه يلهى وينسى فينتهى بأهله إلى غرور خادع ، وهى حقيقة حين يتعمق القلب فى طلب الحقيقة ، حقيقة لا يقصد بها القرآن العزلة عن حياة الأرض ، ولا إهمال عمارتها وخلافتها التى ناطها بهذا الكائن البشرى ، إنما يقصد بها تصحيح المقاييس الشعورية والقيم النفسية ، والاستعلاء على غرور المتاع الزائل وجاذبيته المقيدة بالأرض ، هذا الاستعلاء الذى يحتاج إليه كل مؤمن بعقيدة ليحقق عقيدته ، ولو اقتضى تحقيقها أن يضحى بهذه الحياة الدنيا جميعا » .

ومن ثم يدعوهم إلى السباق فى ميدان السباق الحقيقى للغاية التى تستحق السباق ، الغاية التى تنتهى إليها مصائرهم ، والتى تلازمهم بعد ذلك فى عالم البقاء ،و كان الحث على المبادرة إلى الخيرات ، من فعل الطاعات وترك المحرمات التى تكفر عنه الذنوب والزلات ، وتحصل له

الثواب والدرجات ، وليس السباق إلى إحراز لهو وإنما إلى إحراز ملك عريض فى الجنة ، ذلك الملك العريض يبلغه كل من أراد ، وسابق إليه كل من يشاء ، وعربونه : الإيمان بالله ورسله ، وهذا الذى أهلهم الله له هو من فضله ومنّه عليهم وإحسانه إليهم ، وفضل الله غير محجوز ولا محجور فهو مباح متاح للراغبين والسابقين ، وفى هذا فليتسابق المتسابقون .

وتجىء اللمسة الرابعة فى إيقاع عميق عن قدر الله الذى لا يكون سواه ، فهذا الوجود من الدقة والتقدير بحيث لا يقع فيه حادث إلا وهو مقدر من قبل فى تصميمه ، محسوب حسابه فى كيانه لا مكان فيه للمصادفة ولا شىء فيه جزاف ، وقبل خلق الأرض وقبل خلق الأنفس كان فى علم الله الكامل الشامل الدقيق كل حدث سيظهر للخلائق فى وقته المقدور وفى علم الله لا شىء ماض ولا شىء حاضر ولا شىء : قادم ، وهذا شىء يسير على الله عز وجل ؛ لأنه يعلم ما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

وقيمة هذه الحقيقة فى النفس البشرية أن تسكب فيها السكون والطمأنينة عند استقبال الأحداث خيرها وشرها فلا تجزع الجزع الذى تطير به شعاعا ، وتذهب معه حسرات عند الضراء ، ولا تفرح الفرح الذى تستطار به وتفقد الاتزان عند السراء ، والمؤمنون مطلوب منهم ألا يخرجهم الألم للضراء ، ولا الفرح بالسراء عن دائرة التوجه إلى الله ، فالاعتدال فى الفرح والحزن مطلوب .

ووجه الصلة بين الحقيقة السابقة وبين الاختيال والفخر ، ثم بين هذا وذلك وبين البخل والأمر بالبخل، وهو أن من يشعر بأن كل ما يصيبه هو من أمر الله، لا يختال ولا يفخر بما يعطاه ، ولا يبخل ولا يأمر بالبخل فى عطاء ، فأما الذى لا يشعر بتلك الحقيقة فيحسب أن ما يؤتاه من مال وقوة وجاه هو من كسبه فيفخر ويختال به ، ثم يبخل كذلك ببذل شىء منه ، ويحث غيره على البخل ليحقق مبدأه ومنهجه ومن ينفق فإنما ينفق لنفسه، ومن يستجب فإنما يستجيب لمصلحته ، والله هو الغنى فما به من حاجة إلى العباد المحاويج ، والله هو الحميد بذاته فما يناله شىء من حمد الحامدين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويا :

١ ـ هذا الدين لا يقوم بغير الإنفاق والجهاد ؛ لتأمين العقيدة وحماية أهله من الفتن ، والتمكين له فى الأرض .

٢ ـ عندما نقيس أمور الدنيا بالنسبة إلى الآخرة ، يجب أن تهون الدنيا فى نظرنا ، من أجل الآخرة وما فيها من خلود ونعيم دائم .

٣ ـ الله تعالى لا يحب المعجبين بأنفسهم والمختالين والمتفاخرين ، ولكنه يحب المتواضعين الكرماء الأتقياء .

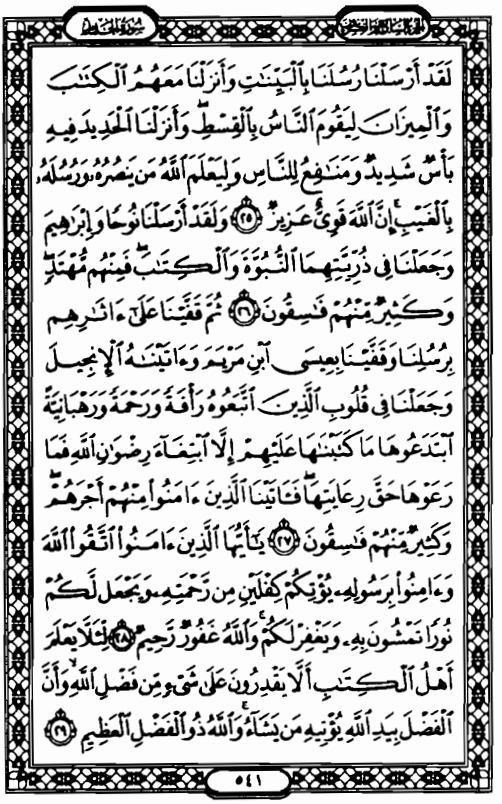
لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ
وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ
بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ
بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ
وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم
بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ
وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً
ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا
رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ
نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ
أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ
الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾
٥٤١

معانى الكلمات :

وأنزلنا : وخلقنا .

بأس : قوة

قفينا : أتبعنا

رهبانية : مغالاة فى التعبد والتقشف .

كتبناها : فرضناها .

فما رعوها حق رعايتها : فلم يقوموا بها حق القيام .

يؤتكم : يعطكم .

كفلين : نصيبين (أجرين) .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن رسالة الأنبياء واحدة فى جوهرها .

٢ ـ أن نتعرف على سنة الله تعالى فى خلقه .

٣ ـ أن نتعلم كيف نخاطب الناس وكيف نوقظ الفطرة .

المحتوى التربوى :

يعرض السياق باختصار خط الرسالة ، وتاريخ هذه العقيدة من لدن نوح وإبراهيم ؛ مقرراً حقيقتها وغايتها فى دنيا الناس ، ملما بحال أهل الكتاب وأتباع عيسى عليه السلام بصفة خاصة ، والرسالة واحدة فى جوهرها ، جاء بها الرسل ومعهم البينات عليها ، ومعظمهم جاء بالمعجزات الخوارق ، وبعضهم أُنزل عليه كتاب ، والنص يقول بأنه أنزل معهم الكتاب بوصفهم وحدة ، وبوصف الكتاب وحدة كذلك ، إشارة إلى وحدة الرسالة فى جوهرها .

والميزان مع الكتاب ، فكل الرسالات جاءت لتقر فى الأرض وفى حياة الناس ميزانا ثابتا ترجع إليه البشرية ؛ لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال ، وتقيم عليه حياتها فى مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة ، وتصادم المصالح والمنافع ، ميزانا لا يحابى أحداً لأنه يزن بالحق الإلهى للجميع ، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع ، وهذا الميزان الذى أنزله الله

فى الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التى تحيق بها فى معترك الأهواء ومضطرب العواطف ، ومصطخب المنافسة وحب الذات ، فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة .والتعبير بإنزال الحديد يشير إلى إرادة الله وتقديره فى خلق الأشياء والأحداث ، فهى منزلة بقدرته وتقديره ، وجعل الله الحديد رادعا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ، وهو قوة فى الحرب والسلم ، وفيه منافع للناس ، وتكاد حضارة البشر القائمة الآن تقوم على الحديد ، ومن كان فى نيته حمل السلاح نصرة لله ورسله ، فالله قوى عزيز ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض .

ولما انتهى من تقرير وحدة الرسالة فى جوهرها وكتابها وميزانها عاد يقرر وحدتها فى رجالها ، فهم من ذرية نوح وإبراهيم، وهى شجرة واحدة باسقة، متشابكة الفروع ، فيها النبوة والكتاب ، ممتدة من فجر البشرية منذ نوح حتى إذا انتهت إلى إبراهيم ، تفرعت وامتدت وانبثقت النبوات من ذلك الفرع الكبير الذى صار أصلاً باسقا ممتداً إلى آخر الرسالات ، وأما الذرية التى جاءتها النبوات والكتب فلم تكن على شاكلة واحدة ، فمنهم مهتد والكثير فاسق وهو تلخيص قصير لذلك الخط الطويل .

وقرب نهاية الخط يجيء عيسى ابن مريم على آثار السابقين من ذرية نوح وإبراهيم ، فكانت الرسالة ممتدة واحدة على إثر واحدة حتى جاء عيسى ابن مريم ، ويذكر هنا صفة بارزة من صفات الذين اتبعوا عيسى ابن مريم ، والرأفة والرحمة ظاهرة واضحة فى المؤمنين حقيقة برسالة عيسى عليه السلام ممن أحسنوا اتباعه ، وهى ثمرة طبيعية لدعوة المسيح عليه السلام وروحها السمحة وتطهرها الروحى ، وشفافيتها الوضيئة .

كذلك يذكر النص هنا ظاهرة أخرى عرفت فى تاريخ أتباع عيسى ابن مريم ، وهذه الرهبانية التى عرفها تاريخ المسيحية كانت اختياراً من بعض أتباع عيسى عليه السلام ، ابتدعوها من عند أنفسهم ابتغاء رضوان الله ، ، وابتعاداً عن أوضار الحياة ، ولم يكتبها الله عليهم ابتداء ، ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم صاروا مرتبطين أمام الله بأن يرعوا حقوقها ، ويحافظوا على مقتضياتها من تطهر وترفع ، وقناعة وعفة وذكر وعبادة مما يحقق فى أنفسهم حقيقة التجرد لله التى قصدوا إليها بهذه الرهبانية التى ابتدعوها ، ولكنها انتهت إلى أن تصبح فى الغالب طقوسا وشعائر خالية من الروح وأن يتخذها الكثيرون مظهراً عاريا من الحقيقة ، فلا يصبر على تكاليفها إلا عدد منهم قليل.

والله لا يأخذ الناس بالمظاهر والأشكال ، ولا بالطقوس والمسوح ، إنما يأخذهم بالعمل والنية،ويحاسبهم على حقيقة الشعور والسلوك،وهو الذى يعلم خبايا القلوب وذوات الصدور.

وبعد هذا العرض السريع يجىء الهتاف الأخير للذين آمنوا ، وهم الحلقة الأخيرة فى سلسلة المؤمنين برسالة الله فى تاريخها الطويل ، وورثة هذه الرسالة الذين يقومون عليها إلى يوم الدين ، ونداؤهم بالمؤمنين فيه لمسة خاصة لقلوبهم، واستحياء لمعنى الإيمان، وتذكير برعايته حق رعايته، واستجاشة للصلة التى تربطهم بربهم الذى يناديهم هذا النداء الكريم الحبيب ، وباسم هذه الصلة يدعوهم إلى تقوى الله والإيمان برسوله ، فيبدو للإيمان المطلوب معنى خاص ، معنى حقيقة الإيمان وما ينبثق عنها من آثار .

ولما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أعطى الله لهذه الأمة نصيبين من رحمته ، ومجرد مسها لإنسان يمنحه حقيقتها ، وفى هذا التعبير زيادة امتداد للرحمة وزيادة فيض ، ويهب لهم نوراً يمشون به ، وهى هبة لدنيه يودعها الله القلوب التى تستشعر تقواه ، وتؤمن حق الإيمان برسوله ، هبة تنير تلك القلوب فتشرق ، وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز ، ومن وراء الأشكال والمظاهر فلا تتخبط ولا تلتوى بها الطريق .

والإنسان إنسان مهما وهب من النور ، إنسان يقصر حتى لو عرف الطريق ، إنسان يحتاج إلى المغفرة فتدركه رحمة الله .

وقد كان أهل الكتاب يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، فالله يدعو الذين آمنوا إلى استحقاق رحمته وجنته وهبته ومغفرته حتى يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على احتجاز شئ من فضله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، غير مقصور على قوم ، ولا محجوز لطائفة ، ولا محدود ولا قليل ، فالله صاحب الفضل العظيم .

وهى دعوة فيها تخصيص واستجاشة واستثارة للسباق إلى الجنة والرحمة ، وكى تحقق القلوب إيمانها وتخشع لربها وتستجيب لتكاليف الإيمان فى الأموال والأرواح فى تجرد وإخلاص ، والسورة كلها نموذج واضح فى خطاب القلوب البشرية ، واستجاشتها بأسلوب عميق التأثير ، وهى درس بديع لأصحاب هذه الدعوة ، يعلمهم كيف يخاطبون الناس ، وكيف يوقظون الفطرة ، وكيف يستحيون القلوب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الرسالات السماوية كلها تدعو إلى عبادة الله وحده ، كما تحث على العدل فى تقدير الأعمال والأحداث والأشياء .

٢ ـ منهج الله لا يحابى أحداً لأنه ميزان يزن بالحق الإلهى للجميع ولا يحيف على أحد .

٣ ـ الإنسان إنسان مهما وهب من النور ، إنسان يقصر حتى لو عرف الطريق ، إنسان يحتاج إلى المغفرة فتدركه رحمة الله .